أساطير القدماء
ودلالتها

إن أساطير القدماء وعقائدهم وخيالاتهم ، قد تمدنا بأدلة ندرك بها الفرق بين ما أكب القدماء وأهل العصور الوسطى على اليقين به ، وبين العقائد والأفكار التي تذيع في هذا العصر. ان تلك الاشياء كانت في العصور الأولى من المسلمات التي لا تحتمل الشك ، في حين انها وان كان لها مثيلات تنتشر اليوم بين الطبقات الدنيا ؛ فانها أشياء قد دخلت بالشك عند الأوساط من الناس ، ورفضها أهل الطبقات المنتقاة .

ولا شك في أن بعض الناس يعتقدون اليوم في أهل كثير من البلاد النائية عن مواقعهم الجغرافية ، معتقدات أساسها الوهم والخيال ، غير انها خيالات وأوهام لا شك في أنها قد تبلغ من الخطأ مبلغ تلك التي ذاعت في القرن الثامن عشر مثلاً . وان هذا هو « المقياس » الذي نقيس عليه مقدار ما أثر الأسلوب العلمي في العقول ، من حيث القضاء على الوهم والخيال في أدمغة الناس .

الانسان الذي عاش منذ ستة قرون مضين ، غير انسان الزمن الحاضر . كان في عقله متسع لأن يصدق أي شيء وان يتقبل كل ما ينقل اليه ، مصدقاً به مسلماً بكل ما هو منابذ لطبيعة الاشياء أو بعيد عن مألوف الواقع ، إذا ما نقل اليه عن سلطة يحترمها أو مصدر يجله . وكيف يستطيع ان يرفض أقصوصة تقص عليه أو واقعة تنقل اليه ، وهو في حياته اليومية على انتظار ما يقع فيما بين لحظة وأخرى من معجزات وخوارق ، كلها على النقيض من سياق الأشياء الطبيعية ؟

من فوقه في السماء ، ومن تحته في الأرض ، عوالم مفعمة بجواهر خافية مريدة ، شياطين وملائكة وسلائل عجيبة التكوين من أنسال الآلهة ، وفوق ما فيه من استعداد إلى تلبية نداء

الله أو الشيطان — إذ كان يتعذر على القلب ان يحكم أية من الناحيتين تناديه — فيقودانه حيناً الى الخير والفلاح ، وحيناً الى الخطيئات واللعنات .

القديسون والقديسات — على ان يتمتعوا بالقوة القدسية هم صنائع الله الذين أمدهم بقوة من عنده على اصطناع الخوارق والأعاجيب والمعجزات ، لتكون وسيلة الى ايقاظ الورع والتقوى في نفوس المؤمنين ، والى جنبهم الشيطان وعماله يشنون حرباً مستمرة لاهوادة فيها ليزعزعوا ما ثبت في أغوار القلوب وأتقى الأفئدة من بواعث الخير والخشية والاستسلام .

إن هذا الاعتقاد الثابت في امكان حدوث المعجزات ، قد أنشأ في عقليته اتجاهاً اصطبغت به كل الأشياء في العصور الوسطى ، من الحوادث البسيطة في مجرى الحياة ، الى الوقائع الكونية التي تصرفها العناية الآلهية . وعلى العكس من هذا كله نجد العلم الحديث ، فانه لا يبحث وراء الغاية التي من أجلها وجدت الاشياء في هذه الدنيا ، ولا يجري وراء المعنى الذي يختبىء خلف وجودها . إنه يصف « كيف » تحدث الأشياء ، و « لماذا » تحدث .

يقول « سنتايانا » :

قد نتكلم بعض الأحيان كما لو أن القول بخرافة الخوارق او الاعتقاد في المعجزة ، هو في ذاته رفض لشمولية القانون الطبيعي ، او وحي توحي به الينا رغبة في تشويش تجاربنا وفهم قدرتنا الفكرية او العقلية . وليس من فرض هو أبعد عن الحقيقة من هذا الفرض . فان كل خرافة انما هي شظية صغيرة من العلم ، يبعثها في أنفسنا رغبة في ان نفهم وان نتطلع ونستبين ، وان نتحكم في شيء من خفايا العالم المنظور . وقوى الطبيعة أو قوى الفرد الحر ، أقرب الى الفهم ، وأطوع الى الاستيعاب من السنن الآلية الثابتة القريبة منه [illegible] الخرافة والمعجزة أمر قريب من أنفسنا وعقولنا . فهو يرى الانسان في المعجزة طريقاً الى طلب الرحمة ، او وسيلة الى اثبات وجود السلطة العليا في الخلق أو رغبة من نوع ما تجبرنا على الاعتقاد بها . وعلى الضد من ذلك ، نجد ان قانوناً آلياً ان كان في الواقع تسجيلا لما يجري في العادة ، انما هو في ظاهر نظام الاشياء أمر لا عقل ولا رشد فيه . فرحادثة من حوادث الطبيعة يستعصي على التفسير ، ولا يستظهر منها قسط معين معروف ، لا يدخل في نطاق المعجزة . على ان ما يدهشنا من أمر المعجزة والاعتقاد فيها ، انه على العكس مما رأينا فيها من قبل ، قد يرى الآن ان لها أساساً صحيحاً حقق تبرير الاعتقاد بها زمناً ما .

من ثمّ نجد أهل القرون الوسطى في توثبهم إلى فهم الدنيا المحيطة بهم ، قد أيقنوا بأن القصد يختفي من وراء الاشياء ، والغاية تكمن خلف ظواهرها ، وان هذا القصد وتلك الغاية قد يكتنفان عند حدوث أي حادث . كذلك رأى أن ارادة الله هي السبب الثاني لوجود الكون ، وان هذه الارادة إن استعصى على العقل الكشف عن معضلاتها ، فانها على الأقل تهيء للانسان فرصة الوقوف على معنى الأشياء وصبغتها العقلية .

لا شك في أن الانسان الذي يعيش في مثل هذا الجو ، من شأنه أن يفعم الدنيا المحيطة به بذوات خافية يتخيل وجودها وقوات روحية يتصورها ، ويتوقع حدوث ما لا يمكن توقعه من أحداث الدنيا ، ويضفي على كل ذلك قيمة موهومة وكذلك لا يبعد على ذهنه أن يقبل فكرة أن هذه الذوات وتلك الأرواح قد تعمل على اثبات وجودها وتحقيق أثرها باحداث خوارق ومعجزات .

* * *

ان حياة القديسين ، وكانت من أشهر ما يخاطب القلوب في العصور الوسطى ، تزخر بذكر أشياء خارقة للطبيعة ، وقد سجلت في المخلفات التي تركها هؤلاء القديسين وأقيمت لاحياء ذكراها الاحتفالات ونظمت المهرجانات . ولا مشاحة في أن هذه الخوارق كانت الطريق المعبد الى القداسة .

أما الشيطان وأنصار الشيطان، فكانت أشياء حقيقية واقعة في معتقدهم ثابتة في روعهم، وأن قدرة الله وقوة ملائكته كانت كثيرة ما تعبأ بين آونة وأخرى لتعلن عليهم الحرب بعد الحرب والغارة بعد الغارة . وكانت مخلفات القديسين وتبريك الكنيسة والصلوات والتوسل والعطايا والتضحيات ، كانت الأشياء التي يلجأ اليها إذا حزب الأمر وثار ثائر المرضى .

قص القديس بطرس ، ودم باسيل ، وشعر دنيس ، وجثمان القديس مرقص الذي سرقه البحارة البندقيون ليكون في كاتدرائيتهم المرصعة بالجواهر على ضفاف ضحاضحهم ، وبيت العذراء مريم الذي طار بمعجزة عبر البحر الى « لورتو » عامة ذا قد اتخذت مصادر تستمد منها القوة التي يمكن بها رد البغي الانساني والغواية الشيطانية . ولقد رغب الناس في هذه رغبة محمومة حتى أن القديس لويس الفرنسي قد أراح نفسه بالاعتقاد بأن حملته الصليبية كانت فوزاً مبيناً وعملاً خالداً ، بالرغم من انه لم يهبط الأرض المقدسة ، لأنه استطاع أن يحضر معه قطعة من خشب الصليب الحقيقي الذي صلب عليه المسيح .

* * *

ولقد روى غريغوري الكبير قصة عن قديس ، تمثل بجلاء فكر الناس ومعتقداتهم في العصور الوسطى :

في جبل مرسيكوس ، بإقليم كامبانيا ، عاش رجل محترم سنه مارتن سنوات عديدة في كهف ضيق . ولقد عرفه الكثيرون منا وأصبحوا شهداء على أعماله . ولقد سمعت عنه الكثير من البابا فيلاغيوس سلفي وغيره من رجال الدين الذين رووا ما اتصل بهم من وقائعه . وها هي ذي أول معجزاته : فانه لم يكد يستقر في رأس

ذلك الجبل ، متخذاً غاراً [illegible] سنداً له ، حتى انبثق ينبوع من الماء الجاري يكفي لسد حاجاته حتى يقوم بخدمة الله ، وكان [illegible] لا أقل ولا أكثر مما يحتاج ... ولكن عدو الانسان القديم حقد على الرجل [illegible] فعمل على أن يخرج هذا الرجل من كهفه متخذاً من شيطانيته وسيلة الى ذلك ، وقد حل في جثمان ثعبان [illegible] وحاول أن يفزع الراهب ويخيفه ويروعه ، عسى أن يهرب من مأواه هذا ، فجاء [illegible] وانطرح أمام القديس عندما كان يصلي ، ونام الى جنبه عندما أراد أن يستريح ولكن الرجل لم يفزع [illegible] بل أصبح يمد اليه يد الطمأنينة أو يمد اليه قدمه ويقول له : « اذا أردت أن تبتلعني فافعل » [illegible] وبعد أن ظلت هذه الاشياء تجري ثلاث سنوات ، تخلى عدو الانسان الاقدم نجاة مهزوماً [illegible] خياله وصبره . واتخذ الشيطان طريقه من فوق الجبل الى مهواه صاخباً ، فأحرق اللهب الذي خرج منه جميع الاشجار التي كانت في ذلك المكان »

• • •

مثل هذه الأ[illegible] [illegible] في الجحيم ، مع تلك العذاب الذي سوف يلقى أولئك الذين لم يتوبوا [illegible] الله . ولقد سعدت جهنم العبرانية Gehenna بكثير من عناية الانسان في تلك العصور ، فوصفت أكمل وصف ، واختبرت مجالاتها وتفصيلاتها أتم اختبار ، وارتيدت جنباتها القصية وأصقاعها الجحيمية ، وأضفيت عليها كل الأوصاف التي تخيلها القدماء والمحدثون . أما السماء فكانت بعيدة بعيدة جهد البعد ، نائية كل النأي ، هنالك فيما بعد الزرقاء وفيما وراء كل الكواكب المرئية . ولكن قدرة الله قد تمتد فتصل الى كل ركن من أركان الوجود ، والى كل وقب مهما ذل وصغر من وقوب العالم المخلوق .

وكثيراً ما كان الناس يستمعون الى ما سوف يحل بهم من عقاب اذا عصوا ومن ثواب إذا أطاعوا ، [illegible] يصغون الى شيء من هذا من غير أن ترتعد فرائصهم فزعاً وروعاً . وكان هذا [illegible] عالم الغيب ، قريب كل القرب من مشاعر ريفي من الفلاحين أو تاجر من المدنيين [illegible] كان أقرب اليه [illegible] ما يتخيل اليه عقله وشعوره ، من بلاد الهند ، أو من روما نفسها ، حتى لقد كان يتخيل المرء انه على عتبة الآخرة ، وانها أقرب اليه من حبل الوريد . على انه لا ينبغي أن يسبق الى حدسنا أن انسان ذلك العصر العادي أو الراهب [illegible] قد أدخى حياته أكثر حدواً وأمعن تقية ترقباً لتلك الدار الأخرى التي سوف ينتقل اليها ، أو أن التحقق من حدوث العقاب والثواب بعد الموت قد كان من بواعث [illegible] في رغباته وشهواته ؟

لا شك في انه عمل [illegible] أن ينال الحل absolution وغفران الخطيئات ، وان نياته كانت ولا شك على أتقى ما يكون بحكم الطبع البشري . ولكن الجنة وجهنم ، كانتا من الأشياء

الواقعة لامحالة — وإن كل منكم إلاّ واردها — وانهما كشتل الأشياء التي تقع بالانسان من غير أن يكون له اختيار فيهـا كأن يولد وأن يموت . وما دام الأمر كذلك ، فليس من الفطنة أن يعنت الانسان نفسه في التفكير فيما هو محتوم انه يقع ، وان كان قريب الوقوع .

أما أشياؤه الدنيوية فاحتوت على مجموعة من العادات والعرف والآراء المتـداولة بين الناس تداول النقد ، من غير أن يتسرب ذلك الانسان الى مجـالات جديدة من العمل أو أغوار جديدة من الفكر .

على هذه الصورة كانت دنيا الأوساط من الناس في العصور الوسطى . وهي دنيا لاتبعد كثيراً عن دنيا كثير من أهل الريف في هذا العصر . وفي هذا دلالة على ان حركة « التنوير » الذهني قد مضت وئيدة الخطوات ، وان الخطوات التي خطتها ، كانت في مكان دون مكان . أما الباحثون في علم الانسان فيقولون ان تيارات العقول التي عاشت في مثل تلك الدنيـا ، انمـا تعطينا صورة من تلك الخصائص العامة الشاملة التي تختص بها المعتقدات الانسانية حينما تعلو على العقل أن يتهذب باستيعاب التحقيقات العلمية . إن « العقلية البدائية » ، انما دعيت كذلك استناداً الى ما يستدل به عليها من عقلية أهل القبائل المتأخرة التي تعيش في العصر الحاضر . وهذه العقلية بذاتها هي التي دفعت بها عقول أهل العصور الوسطى ، فاحتكمت في تكييف الديانات العقلية ، حتى عند أرقام فهما وأحدهم ذكاء .

* * *

بالنظر في هذه المعتقدات التي ترجع الى تلك الأزمان القصية نجد ان انسان العصر الحديث ، إنما هو في حقيقة أمره كثير اتصاله شديد القرب من همج تلك العصور ، لأنه لا يزال أبعد ما يكون عن شكية أهل العلم التجريبية . وان الخاصية الشاملة التي يتعلق بها هذا القالب العقلي ، سواء أوقعت عليها في جزر البحار الجنوبية ، أو في العصور الوسطى ، أو عند الشابين في حرجات مصرك الحاضر ، انما تنحصر في افراط في الاعتقاد وتفسير كل حادث من حوادث الحياة تفسيراً تأثرياً انفعاليـاً ، وثقة يقينية في حقيقة تلك المعتقدات ، وكراهة متينـة في وضع هذه الأشياء موضع البحث ، أو جرها الى مجال الاختبار . وبالاختصار نقول ان مثل هذا العقل انما « يفهم » معنى كل الأشياء ، ولكنه في الوقت ذاته لا يعرف معرفة تحقيق الاّ مفصلات تتعلق بحاجاته اليومية المحدودة فهو من الجهل بالعالم بحيث يمكن أن تسلم به أتفه الأخطاء ، إلى أنكى الاخطار .